محمد على والزراعة

كلمة حضرة صاحب المعالى حسين عثمان باشا وزير الزراعة

بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة ساكن الجنان محمد على باشا الكبير

« عندما ولى محمد على أمر مصر وجدها فى حالة شديدة من الفوضى ، فقد كانت الأراضى الزراعية فى يد أمراء المماليك الذين كانوا يسومون الفلاحين سوء العذاب ، فتهدمت الطرق وفسدت الترع وتقوضت وسائل الرى وبارت مساحات عظيمة من الأراضى بسبب هرب الفلاحين وكانت أنظمة الزراعة وطرقها عتيقة . ولم تتغير محاصيل مصر عما كانت عليه فى عهد الفراعنة .

وإذ رأى محمد على بثاقب نظره أن بقاء النظام الاقطاعى السائد فى البلاد فى ذلك العهد ، وهو احتكار فئة الملتزمين وهم أمراء المماليك بكافة أرض مصر عقبة فى سبيل إصلاحاته الزراعية ، عمد إلى هذا النظام عقب تخلصه من هذه الفئة الطاغية ، وذلك بمصادرة أراضيهم وجعلها ملكا للحكومة ، ثم أعاد تنظيمها فقسم القطر المصرى إلى مأموريات على كل منها مأمور . والمأموريات إلى أقسام عليها ناظر قسم ، والأقسام إلى شياخات كبيرة ، وهذه إلى أخطاط ثم إلى قائمقاميات ، وهذه إلى حصص وهى أقل وحدة زراعية على رأسها شيخ حصة ، يشرف على مساحة معينة فيها عدد معلوم من الفلاحين بحسب زمام ناحيته لايتدخل أحد فى شئونهم إلا باذنه ، ثم رتب لكل قرية خولا للزراعة وجعله مسئولا عن زراعة القرية فيمر عليها كل يومين ويقدم عنها تقريراً إلى رئيسه شيخ الحصة فيكون اختصاص هذا الخولى شبيهاً باختصاص معاون الزراعة الآن ، كما أنه رتب الخفراء والصيارف ، وأنشأ نظام الشون لخزن المحصولات ورتب لها النظار والكتاب والوزانين والكيالين والسماسرة ، وحدد اختصاصهم ، فكان الفلاح يجمع محاصيله ويذهب به إلى شونة الحكومة فيوزن

أو يكال ويقدر ثمنه ثم يخزن فيها ويعطى صاحبه وثيقة به حتى إذا باعته الحكومة خصمت من ثمنه نصيبها من الضرائب والعشور وغيرها وردت إليه الباقى فيصرفه فى شئون نفسه .

وقد شكل محمد على مجلسين زراعيين من كبار الأعيان المشهود لهم بعلو الكعب فى شئون الزراعة أشبه بالمجلس الاستشارى الزراعى الحالى ، أحدهما للوجه البحرى والثانى للوجه القبلى ، وطلب منهم وضع قواعد ثابتة لجميع العمليات الزراعية التى تضمن نجاح الزراعة ، ثم أصدر بها لائحة أسماها « لائحة الفلاح وتدبير أحكام السياسة بقصد النجاح » شارحا فيها طرق زراعة المحصولات الشتوية والصيفية .

وقد رأى محمد على أن التوسع الزراعى لايكون إلا بايجاد نظام ثابت للرى الدائم أى الصيفى فى مصر ، يمكن بواسطته زيادة مساحة الأراضى المزروعة وزراعتها طول فصول السنة بلا انقطاع ، فأمر مهندس أشغاله « لينان بك » أن يقيم القناطر الخيرية .

القطن

كان من نتائج التوسع فى الرى الصيفى أن عمل محمد على ، على تحسين المحصولات الحقلية المصرية ، وإدخال كل جديد مفيد من الخارج ، فكان أول من زرع القطن على نطاق واسع فى مصر وحسن أصنافه ، فقد كان يزرع من القطن فى مصر فى العهد الاسلامى صنفان : القطن البلدى — أى الشجرى — فى الوجه القبلى ، والقطن الهندى أو الأسيوى فى الدلتا ، وما لبث هذان الصنفان أن اندثرا بظهور قطن « جوميل » سنة ١٨٢٠ .

قصب السكر

كان القصب المزروع فى مصر حتى عهد محمد على قد تدهور ، فأدخل محمد على أصنافاً جديدة واستحضر خبيراً من الخارج لتعليم الفلاحين زراعتها وصنع السكر منها بالطرق الحديثة ، كما شيد الباشا مصانع حديثة على طراز مصانع السكر فى المستعمرات الفرنسية ، وعمل كذلك على إيجاد مصادر أخرى لاستخراج العسل فاستحضر خبيراً ليعلم الفلاحين فى منفلوط زراعة الدوم واستخراج العسل منه ، وشدد على مأمور منفلوط بضرورة تعليم الأهالى هذه الصناعة .

الذرة الشامية

كانت الذرة الشامية تزرع فى أوائل عهده فى مساحات قليلة ، وعمل على التوسع فى زراعتها وتحسين أصنافها ، فأدخل تقاوى أصناف جديدة لها فى أوربا ، واستحضر عائلات من بلاد المورة ليعلموا المصريين زراعتها .

البطاطس

كان البطاطس لايزرع فى مصر حتى عام ١٨٣٧ فأدخل محمد على زراعة البطاطس فى مصر للاستغناء عن استيرادها من الخارج .

وقد أدخل محمد على أصنافاً مختلفة من الكتان ومن البقوليات والحبوب ونباتات العلف والألياف والخضروات وزرعها لأول مرة فى مصر .

مجهوداته فى فلاحة البساتين

كانت حال البساتين فى أول عهد محمد على فى غاية من البساطة فلم يكن بالقطر كله سوى عدد قليل من أنواع محدودة من الشجر ، فبذل محمد على مجهوداً جباراً للنهوض بهذا الفن ، واستعان فى ذلك بالخبراء الأجانب ، فاستحضر خبيراً بستانياً من اسكتلندا وأوفده الى جزر الهند الشرقية وغيرها ، فعاد وأنشأ سنة ١٨٠٦ حديقة شبرا فى مساحة سبعين فدانا زرع فيها خمسة وسبعين ألف شجرة تابعة لألف وثمانمائة جنس ونوع ونسقها على الطراز المصرى ذى المشايات المستقيمة ، وأقام لريها ولرى مايجاورها من الأراضى الزراعية آلة بخارية تزودها بماء النيل فكانت أول آلة بخارية للرى أقيمت فى مصر .

وقد عنى محمد على فى مزارعه بزراعة كروم العنب وأنفق فى ذلك أموالا طائلة فحصل على أنواع من العنب غاية فى الجودة ولذة الطعم .

البحوث الزراعية

اهتم محمد على بالبحوث الزراعية ، وأدخل الآلات الزراعية الافرنجية الحديثة ، وكثيراً من المحصولات الضرورية

أول حديقة نباتية فى مصر

ومن أجل أعماله أنه أنشأ أول حديقة نباتية فى مساحة خمسة أفدنة بمدرسة الزراعة بشبرا غرسها الطلبة المصريون بأنفسهم بالنباتات التى سبق للباشا أن أدخلها من الخارج وزرعها فى حديقة مدرسة الطب بأبى زعبل .

الحرير وعناية محمد على بتربية دودة القز

عنى محمد على أكبر عناية بإدخال تربية دودة القز فى مصر ونشرها على نطاق واسع فاستورد عائلات كثيرة من المتخصصين فى ذلك ببلاد الشام وأسكنهم وادى الطميلات بمديرية الشرقية وزرع آلاف من أشجار التوت .

الارشاد الزراعى

وكان محمد على ـ للنهوض بالزراعة المصرية ـ يستعين بوسائل الدعاية للارشاد الزراعى ، ولعل أبرز ما فعله فى هذا الشأن هو اللائحة الزراعية التى طبعها ووزعها ، كما أنه كان يكتب الى عماله فى الأقاليم بالارشادات والتوجيهات التى تفيدهم فى النهوض بالزراعة . وقد أصدر فى عام ١٢٦٤ هـ أمره الى رؤساء المصالح الأميرية بإنشاء صحيفة تشمل أخبار الزراعة والتجارة فكانت أول صحيفة زراعية صدرت فى مصر .